علم الانسان

شكل الجمجمة واللون

لو سئل احد العامة بمَ تميز اجناس الناس بعضهم عن بعض لأجاب على الفور بلون بشرتهم . وتراه يفرّق عادة بين اللون الاسمر الخلقي وبين الاسمر المجلوب بتلويح الشمس وتأثير الاقليم . ولكننا اذا ذهبنا الى متحف من المتاحف الكبرى لم نستطع تطبيق قاعدته على ما فيها من بقايا الناس قبل التاريخ لان تلك البقايا عظام بلا جلد فلا يمكننا والحالة هذه تمييز صنف عن صنف باللون فنعمد الى شكل العظام وخصوصاً شكل الجمجمة . فيرى من ذلك ان شكل الجمجمة واللون يساعداننا على معرفة بعض الشيء في هذا البحث الواسع

— شكل الجمجمة —

على ان معرفة شكل الجماجم لمقابلة بعضها ببعض اعسر كثيراً مما يظن . لان نسبة اجزاء الجمجمة بعضها الى بعض لا تبقى على وتيرة واحدة فلا يمكن الاهتداء الى مقياس معين للقياس به . وجهد ما في الامر اننا نحكم بوجود اوجه للشبه او للخلاف بين الجماجم باتين حكمنا على متوسط مجموع النسب التي بينها . وذلك بان يقاس طول الجمجمة ويحسب ١٠٠ ثم يقاس عرضها ويعبّر عن شكلها بنسبة العرض الى الطول . وهذه النسبة تعرف باسم الدليل الجمجمي وتختلف بين ٥٨ و ١٠٠ . فكلما اقترب العرض من الطول كانت الجمجمة اقرب الى الاستدارة وسميت مستديرة او مفلطحة وكلما تباعدا سميت طويلة او مصفّحة

وطول الجمجمة هو خط مستقيم مرسوم من البَلج اي الفرجة بين الحاجبين الى ما برز من القفا . وعرضها خط مرسوم بين ما برز من عظم الجمجمة من الجانبين فوق الاذنين . ويقال غالباً ان الزنوج والاسكيمو والبربر وسكان شمال اوربا من اطول الجماجم الطويلة . وان الاسيويين الساميين سكان السلطنة العثمانية وبعض السلاف من اطول الجماجم المستديرة . ومعظم الانكليز من الاولين ومعظم الفرنسويين من الثانين

وقد ظهر من ابحاث بعض الباحثين ان الاقليم يغير شكل الجماجم كثيراً بطريقة مجهولة . فان جمجمة اليهودي من سكان شرق اوربا اقصر واوسع من جمجمة اليهودي الذي ولد

في اميركا وكان ابواه قد هاجرا اليها من شرق اوربا . وهذا الفرق اكثر ظهوراً في النسل الثاني منهُ في الاول . وكلُّ ما يقول علماء الانثروبولوجيا في تعليل هذا التغيير ان للجمجمة في سني الصغر مرونة تجعلها عرضة لتأثير الاقليم . واذا كان شكل الجمجمة يتغير بتأثير الاقليم افلا يتغير الدماغ كذلك . وبعبارة اخرى اذا كان شكل الراس الطويل الموروث يتغير بتغير المحيط فما القول في ضعفاء المدارك الذين ورثوا ذلك الضعف ابًا عن جدٍّ

اما وقد عرفنا الدليل الجمجمي فلنبحث في اصناف الناس الذين وجدوا قبل زمن التاريخ ولنأخذهم بهذا الدليل فنقول :

اكتشف الدكتور دوبوى في جزيرة جاوى بقايا انسان سمّي « بيثكانثروباس » اي الانسان القردي . وهذه البقايا هي قحف جمجمة وبضع اسنان وعظم فخذ . وقد ذهب مكتشفها الى ان الطبقة الجيولوجية التي وجدت فيها هي المسماة بليوسين (Pliocene) وهي من طبقات العصر الثلاثي (Tertiary) الذي ليس لدينا دليل يرجح وجود الانسان فيهِ . ومع ان دوبوى دافع عن مذهبهِ بحجج قوية فان جمهور العلماء ميالون الى الاعتقاد بان تلك البقايا هي بقايا صنف من القرد المعروف باسم جيبون لا بقايا انسان . وقد قال بعض العلماء في صاحب تلك البقايا انهُ حلقة مفقودة لا ريب فيها لانهُ ان كان قرداً فقد كان ذا دماغ عظيم الحجم وان كان انسانًا فقد كان ابله

ويلي هذا الانسان القردي انسان هيدلبرج اكتشفت آثارهُ في المانيا وهي الفك الاسفل باسنانهِ كاملة . وقد وجد على عمق ٨٠ قدماً واكثر مع آثار حيوانات اخرى تمكننا من تعيين قدمها ببعض الدقة . وقد حسبوا انها تنتمي الى العصر الشلي نسبة الى شلّ (Chelles) في فرنسا . اما الفك فيشبه فك الغورلا في قوتهِ وخلوهِ من الذقن . واما الاسنان فاسنان انسان بلا جدال

ويلي هذا جماجم انسان نياندرتل نسبة الى نياندرتل في المانيا حيث وجدت اولى جمجمة من نوعها سنة ١٨٥٦ . وهي ضيقة ذات جبهة منخفضة منقهقرة وحجاج بارز . ومع ذلك فهي ضعفا جمجمة الغورلا في سعتها . فهذه الاوصاف الفت الشقاق بين العلماء فانقسموا فئات واحدة تقول ان صاحب الجمجمة قرد . وثانية انهُ انسان سويٌّ . وثالثة انهُ انسان ابله . ولسوء الحظ لم يتمكنوا من معرفة قدم الجمجمة ولكنهم وجدوا سنة ١٨٦٦ فك

امرأة قوياً وبلا دفن في بعض كهوف البلجيك ومعهُ بقايا بعض الحيوانات المعروف عصرها بالتقريب كالماموث وفرس النهر الصوفي والوعل او الرنة . وكانوا قد وجدوا قبل ذلك بضع سنوات جمجمة في مقلع للحجارة عند جبل طارق فسميت جمجمة جبل طارق وهي ضيقة ذات خف منخفض وحاجب بارز . ووقبتا العينين دائرتان واسعتان وبعيدتان الواحدة عن الاخرى والاسنان منظومة على شكل نعل الفرس كما في القرد . والوجه اقرب الى وجه القرد منهُ الى وجه الانسان . وقد وجد من هذه الجماجم حتى الآن عشرون او اكثر ووجد بعض هياكلها معها

وخلاصة القول في اصحاب هذه الجماجم ان شكل جماجمهم اشبه بجمجمة القرد منهُ بجمجمة الانسان الى حد محدود ولكن سائر اوصاف الجمجمة واوصاف سائر العظام تطابق اوصاف معاصرينا من سكان استراليا الاصليين ومع ذلك فقد كانوا ناساً ذوي ادمغة يعتقدون بالحياة بعد الموت كما دلت رسومهم

وقد وجدت في اوربا اشكال اخرى من الجماجم القديمة اشهرها اثنان . ففي كهف من كهوف منتون في فرنسا وجد هيكلان عظميان في احدى الطبقات السفلى فان انهما يشبهان هياكل الانوج الحديثة ولما لم يوجد مثلها في اوربا ولا في غيرها لم يستطع العلماء البت في امرهما ووجدت في طبقة اخرى فوقها وفي كهوف اخرى من كهوف منتون عظام من صنف آخر يدل احدها على ان صاحبهُ كان جباراً . وهو ينتمي الى صنف او شعب سموا كرومانيون نسبة الى المكان الذي وجدت عظامهم فيهِ وعاشوا بعد عصر الانسان « المستيريان » الذي وردت الاشارة اليهِ في هذه المقالات . اما شكل جماجمهم فارق من اشكال الجماجم التي سبق وصفها بكثير فان الجبين مرتفع والذقن ظاهر منتظم الحدود ولا يبرز الحجاج ولا الفك الاسفل فيها بروزهما في انسان نياندرتل . ولا يعلم بالتحقيق هل لهذا الشعب اثر في اوربا ومن رأي البعض انهُ لا يزال منهُ اثر في مقاطعة دوردون بفرنسا

وقبل التخلص من باب شكل الجمجمة الى باب لون البشرة لا بدَّ من القول انهُ ليس بين خواص الاجناس المختلفة خاصة الا وهي خادعة فلا يصح الاسترشاد بها على الدوام . ولا يشذ شكل الجمجمة عن ذلك . فان الاقزام سكان الكنغو والبشمان سكان جنوب افريقية من جنس واحد في حين ان رؤوس الاولين متوسطة بين الاستدارة والطول

ورؤوس الآخرين طويلة . وترى رؤوس الزنود الاميركيين مختلفة الاشكال في حين انهم من جنس واحد

— اللون —

قسم ليليوس الناس قبل داروين الى اربعة تنوعات الابيض الاوربي . والاحمر الاميركي . والاصفر الاسيوي . والاسود الافريقي . ولم يكن يخطر ببالهِ اذ ذاك ان يضع بهذه القسمة اساساً لحدود طبيعية تفصل بين تنوع وتنوع . وانما اراد بها وضع اساس للحدود الاصطناعية لانهُ كان يرى رأي يوفون من ان الناس كلهم من نوع واحد ولكن الاقليم يصبغهم باصباغ مختلفة ، ويلوّن كل تنوع بلون . ولكن الداروني ينقّب في ابحاثهِ عن مميزات طبيعية تميز الناس بعضهم من بعض من حيث التسلسل . فالجنس والتسلسل عندهُ شيء واحد . فان وجدت علامة للجنس وجب ان تنوب مناب جميع الخواص التي تألف الوراثة منها وذلك بان توجد معها . افيصح والحالة هذه حسبان اللون علامة جنسية بهذا المعنى العميق ؟

وقبل الجواب عن هذا السؤال نسأل ما هي فائدة اللون ؟ هل ترافقهُ احياناً صفات مفيدة كما ترافق الخط الذي يعرف عند قارئي اسرار اليد بخط القلب ويكون ذلك اتفاقاً لا معنى لهُ ولا دلالة قريبة او بعيدة ؟ وواقع الامر ان اللون في العرف اما ان يكون نعمة لصاحبهِ او نقمة عليهِ في تنازع البقاء . ولا مشاحة فيما لهُ من الاثر الآن في الانتخاب الجنسي اي الانتخاب للتزاوج سواء كان ذلك في الانسان ام في سائر الحيوان هذا اذا لم نقل شيئاً عن تفضيل الناس للون على لون من الوان الوجوه وما يتلو ذلك من التحزّب والغرض الاعمى كما هو مشهور . فان الحيوانات الدنيا تقاد بالظواهر التي تؤثر فيها عند انتخاب الازواج واللون احدى تلك الظواهر بل اظهرها . وكذلك الناس رجالاً ونساء يعولون في ذلك على احكام عيونهم دون احكام عقولهم

على انهُ وان كان للون في الرجل شأناً في المسائل الزوجية بين الناس لم يُرَد في الاصل على ما يظهر لما اريد اللون لهُ في ذكر الطير مثلاً . ولا نقول انهُ خالٍ من الفائدة فيهِ بالمرة بل انهُ مفيد في التزويج وفائدتهُ محصورة وقائمة بكونهِ علامة على القوة والنشاط . ولا ينكر ما للون من العلاقة بالاقليم فان المميزات الجنسية البدنية ومنها اللون نشأت في عصور بعيدة فيها بعضهم بعمل الاجناس . ولا بدّ ان يكون عمل الانتخاب الطبيعي فيها قد اقتصر

في الاكثر على الجسم دون العقل اذ لم يكن العقل قد صار في ذلك العهد الشرط الاول للبقاء . وفيما عدا ذلك فالمسئلة مسئلة جغرافية لا غير . ففي الاقاليم الحارة التي هي مسكن القرود المشابهة للانسان والتي كانت مسكن الانسان الاول يحمي الجلد الاسود صاحبهُ من نور الشمس . ويقال ان الجلد الابيض يقتصد في اشعاع حرارة الشمس في البلاد الباردة ولكن هذا القول لا يزال في معرض الشك . اما الالوان الباقية وهي الاسمر والاصفر والاحمر فالوان متوسطة بين الابيض والاسود وملائمة لما توسط من الاقاليم بين البارد والحارّ

ولا يغرب عن البال ان لسهولة الانفعال يداً في تعيين لون البشرة . فان الانكليزي الذي يقضي جزءاً كبيراً من عمرهِ في حرائة الارض في الهند مثلاً تكتسب بشرتهُ سمرةً لا يزيلها صابون ولا مادة اخرى ولو قضى بقية عمرهِ في انكلترا وطنهِ الاول . على ان المسائل التي لم تحلّ حتى الآن هي هل يتوارث الاولاد عن والديهم هذا اللون فيصبح خاصة من خواصهم؟ وان كانوا يتوارثونهُ فالى اي حدّ ؟ وهل تقصّر الوان السود المقيمين في البلاد الباردة والى اي حدّ ايضاً ؟ هذه مسائل لا بدّ للجواب عنها من تجارب طويلة اختص بها بعض العلماء على ما هو معروف

اما الغرض الاول من اللون فالوقاية من نور الشمس كما تقدم القول . ولكن المتمدنين والذين يتقون اليهم يحتالون على الشمس بلبس الثياب فلذلك اخذ لون البشرة يفقد الغرض الاصلي منهُ ويأت اقرب الى الكماليات منهُ الى الحاجيات . فهل يُفقدهو على مرّ الزمان ؟ . والذي يراهُ العلماء انهُ يفقد على مرّ الزمان الطويل مزيتهُ الاصلية وهي وقاية صاحبهِ من عوادي الاقليم وتغيراتهِ وتصييرهُ صالحاً للبقاء فيها . ومهما يكن من ذلك فان الاهواء والتحزبات الجنسية المؤسسة على لون البشرة لا بدّ ان تضمحل متى ظهر من السود والسمر والصفر صفات عقلية تمكنهم من مزاحمة البيض في احوال متشابهة وفي بلاد مختلفة الاقليم

وهذا يفضي بنا الى البحث في الاجناس من حيث مظهرها العقلي . فما هو العقل وما هو محكهُ ؟